الخطاب

تمهيد:

لقد أصبح مفهوم الخطاب أكثر شمولية، حيث يضم صلات النص العضوية، وسياقه الخارجي بما يحتويه من حيز نفسي واجتماعي ومكان وزمان التخاطب وكل ما يحيط بالعملية التخاطبية، فهو بنية ودلالة ووظيفة سياقية، وهذا يعني أن نظرية الخطاب أنهت استقلالية النص وانفراده بالدلالة، ليصبح هذا الأخير تابعا لبنية أشمل هي بنية الخطاب.

أولا: مفهوم الخطاب:

حظي الخطاب "Discours" بكم غزير من الدراسات التي تناولته، وقد جعلت تلك الدراسات مفهوم الخطاب كالحرباء، يتلون بلون الخلفية التي يقف أمامها، إذ فرض كل حقل معرفي عند استخدامه للمفهوم مسلماته ومقولاته وإشكالاته عليه، بحيث صار هذا المفهوم يتسم بالنسبية والاختلاف، فبينما يضيّق البعض مفهوم الخطاب ليقتصر على أساليب الكلام والمحادثة فقط، يوسعه البعض الآخر ليجعله مرادفا للنظام الاجتماعي برمته، حيث يصير كل شيء خطابا[1].

ويعود مصطلح الخطاب بمفهومه المعاصر إلى الفيلسوف الفرنسي "ميشال فوكو" "Michel Foucault"، وهو مصطلح يندرج ضمن فضاء اصطلاحي أشمل هو فضاء "حفريات المعرفة" للفيلسوف نفسه، حيث غدت العلوم الإنسانية حقولا بل طبقات متراصة عبر البعد الزماني للغة، ومجموعة من الآنيات المتتابعة، يطمس اللاحق منها السابق، فتصبح حقلا خصبا لممارسة حفريات لغوية شبيهة بتلك التي تمارس لدى علماء الآثار، وتخضع لرؤية منهجية تجمع بين البنيوية والابستمولوجيا والتاريخ لتصنع تحقيبا معرفيا أصوليا للفكر الإنساني، وهو ما خول لنا الانتقال المعرفي من مجال الحديث عن تاريخ الفكر القائم على الأحداث الخارجة عنه إلى مجال تاريخ أنظمة الفكر، حيث تحول الفكر إلى نسق أو بنية مستقلة بذاتها ومنتهية[2].

وقد عدّ "فوكو" الخطاب مفهوما مرتبطا بالإنسان وبمؤسساته، فلم يعد طريقة للتعبير أو حديثا متساوقا أو مجموعة عمليات فكرية مترابطة، أو تحليلا لذات واعية، تتأمل وتعرف وتعبر، وإنما أصبح إمكانا وشرط وجود ونظاما. أصبح حقلا تتمفصل فيه الذوات، ومجموعة علاقات تجد فيها مرتكزا له"[3].

---

[1] - محمد صفار، تحليل الخطاب وإشكالية نقل المفاهيم، رؤية مقترحة، مجلة النهضة، كلية الاقتصاد والعلوم السياسية، القاهرة، مج6، العدد الرابع، 2005، ص110.

[2] - ينظر، مختار الفجاري، مفهوم الخطاب بين مرجعية الأصلي الغربي وتأصيله في اللغة العربية، مجلة جامعة طيبة للاداب والعلوم الإنسانية، المدينة المنورة، العدد 3، 1435ه، ص532.

[3] - علي حرب، الموسوعة الفلسفية العربية، مج1، معهد الإنماء العربي، ط1، 1986، ص1771، مادة مقال.

ويحدد فوكو الخطاب بقوله: "هو مصطلح لساني يتميز عن النص والكلام والكتابة وغيرها، ويشمل كل إنتاج ذهني، سواء أكان نثرا أم شعرا منطوقا أم مكتوبا، فرديا أم جماعيا، ذاتيا أم مؤسسيا، وللخطاب منطق داخلي وارتباطات مؤسسية، فهو ليس ناتجا بالضرورة عن ذات فردية يعبر عنها، أو يحمل معناها، أو يميل إليها، بل قد يكون خطاب مؤسسة أو فترة زمنية أو فرع معرفي ما"[1].

وقد آل البحث مع رواد المدرسة الفرنسية لتحليل الخطاب إلى ضبط مفهوم الخطاب ضمن أربعة أصناف: صنف متعلق بالتموقع في حقل خطابي مثل الخطاب الإسلامي، أو الخطاب القومي، أو الخطاب العلماني... وصنف نمط الخطاب مثل الخطاب الصحفي أو الخطاب الإداري ... ، وصنف مداره حول إنتاجات كلامية مخصوصة لصنف متكلمين مثل خطاب الممرضات، أو خطاب ربات العائلات، أو خطاب لاعبي كرة القدم... وصنف مرتبط بوظيفة الكلام مثل الخطاب السجالي، والخطاب الإلزامي...[2].

ويشكل الخطاب أيضا نسقا من العلامات الدالة الخاصة بالأفراد أو المجموعات أو حتى الموضوعات، وكل نسق من الأنساق الخطابية له سمات خلافية تميزه عن غيره من الأنساق، حيث يمكن تصنيف الخطاب إلى خطاب زيد أو عمر، أو الخطاب العربي أو الخطاب الفلسفي، أو إلى غير ذلك من البنيات الخطابية اللامتناهية[3].

وقد ربط "جورج ويول" الخطاب بالمعطيات الخارجية؛ ذلك "أن المعاني لا تكمن في الأدوات اللغوية المستعملة، بل لدى المتكلم الذي يستعمل تلك الأدوات، ويوظفها بشتى السبل لتحقيق مقاصده ونواياه، ولدعم هذا الطرح يقدم المؤلفان نماذج كثيرة ومتنوعة من الخطاب كالمحادثات المسجلة في ظروف اجتماعية مختلفة وبعض المقتطفات من الصحف اليومية... ويحللان تلك النماذج بتفصيل دقيق مما يسمح لأي دارس بتطبيقها على أي لغة[4].

من هنا يصبح الخطاب بنية شاملة تنطوي تحتها جملة من المعطيات اللغوية النسقية والخارجية السياقية، وهو ما يراه "فوكو" حين عدّ الخطاب الأداة المنهجية التي تعيد الاعتبار لكل العناصر الحافة بالعملية الدلالية والفاعلة فيها، حتى غدا النص مجرد عنصر من عناصر أخرى لا تقل عنه قيمة في صياغة المعنى وتشكيل الدلالة. فالخطاب إذن هو كل تلك العناصر مجتمعة في علاقتها بالنص والتاريخ

---

[1] - ميشال فوكو، نظام الخطاب، ترجمة محمد سبيلا، دار التنوير للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت، ط1، 2007، ص8.
[2] - ينظر، مختار الفجاري، مفهوم الخطاب بين مرجعية الأصلي الغربي وتأصيله في اللغة العربية، ص534.
[3] - ينظر، مختار الفجاري، مفهوم الخطاب بين مرجعية الأصلي الغربي وتأصيله في اللغة العربية، ص532.
[4] - ينظر، جورج براون، ج يول، تحليل الخطاب، ترجمة محمد لطفي الزليطي، منير التريكي، جامعة سعود، الرياض، ط1، 1997، المقدمة.

والسياق وأطراف الدلالة والتواصل[1]، "فهو تواصل لغوي ينظر إليه باعتباره عملية تجري بين متكلم ومستمع، أو تفاعل شخصي يحدد شكله غرضه الاجتماعي، والنص تواصل لغوي سواء شفهي أو مكتوب ينظر إليه باعتباره رسالة مشفرة في أدائها السمعية أو البصرية"[2]. فهو "يفهم قبل كل شيء على أنه الجزء اللغوي من فعل التواصل"[3].

وعليه فإن الخطاب يشكل بنية شاملة تضم صلات النص العضوية، وسياقه الخارجي بما يتضمنه من سياق الموقف، وسياق اجتماعي وسياق ثقافي، في حين يقف النص عند حدود البنية الداخلية ولا يتعداها، فهو بنية مغلقة يحدد وجوده الكاتب، ليصبح هذا الأخير مكونا من مكونات الخطاب.

ولعل هذه الرؤى الاستعمالية للخطاب تعيد الاعتبار للمعنى؛ ذلك لأن دراسة المعنى لا تقتصر على الجانب اللغوي فحسب، وإنما تستدعي معارف غير لسانية تنطوي تحتها جملة من المعطيات الخارجية، للوقوف على مضامين النص الداخلية التي يتعذر بلوغها إذا عزل النص عن سياقه الخارجي.

---

[1] - ينظر، مختار الفجاري، مفهوم الخطاب بين مرجعية الأصلي الغربي وتأصيله في اللغة العربية، ص534.

[2] - سارة ميلز، الخطاب، ترجمة عبد الوهاب علوب،المركز القومي للترجمة، ط1، 2016، ص15-16.

[3] - زتسيسلاف وأورزنياك، مدخل إلى علم النص مشكلات بناء النص، ترجمة سعيد حسن بحيري، مؤسسة المختار لنشر والتوزيع، القاهرة، ط1، 2003، ص58.